وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كلية التربية للعلوم الإنسانيّة
قسم اللغة العربية

الثُنائيّات الضدّية في مَقامات الهَمذاني والحَريري
دراسة موازنة

رسالة مقدمة

إلى مجلِس كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة ديالى، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، تخصص/ أدب.

من قبل الطالبة

أفراح محمّد جمعة

بإشراف

أ. م. د. باسم محمد ابراهيم الفهد

١٤٤٢هـ ٢٠٢٠ م

الفصل الأول

ثنائيّة الشخصيّة بين التخفّي والتمظهر

المبحث الأول: التخفّي وثنائيّة الشخصية

المبحث الثاني: التمظهر وثنائية الشخصيّة

المبحث الأول
التخفّي وثنائية الشخصيّة

مفهوم الشخصيّة:

اللغة:

((الشخص، جماعة الشخص الإنسان مُذكّر، والجمع أشخاص وشُخُوص وشُخاص، والشخص سواء الإنسان وغيره، نراه من بعيد، ونقول ثلاثة أشخصٍ، وكلّ شيءٍ رأيتُ جسمانه)).[١]

أمّا اصطلاحًا:

تختلف المقاربات والنظريّات حول مفهوم الشخصيّة، وتصلُ إلى حدّ التضارب والتناقض، ففي النظريات السيكولوجية تتّخذ الشخصيّة جوهرًا سيكولوجيا، وتصير فردًا، شخصًا، أي ببساطة كائنًا انسانًا، أو في المنظور الاجتماعي تتحوّل الشخصيّة إلى نمط اجتماعي يعبّر عن واقع طبقي.[٢]

ويعرّفها قاموس السرديات على إنّها ((كائنٌ حيٌّ له سماتُ انسانيّة، ومنخرط في أفعال انسانيّة، له صفات انسانيّة، يُمكن أن تكون الشخصيّات رئيسيّة أو ثانويّة ديناميكيّة، أو استاتيكيّة، منسّقة أو غير منسّقة، مسطّحة أو مستديرة، ويُمكن أيضًا تحديدها طبقًا لأعمالها أو أقوالها ومشاعرها ومظهرها، وطبقًا لاتساقها مع الأدوار المعياريّة، أو طبقًا لاتفاقها مع مجالات محددة من الأفعال، إنّ مصطلح الشخصيّة غالبًا ما يستخدم للدلالة على كائنات تنتمي لعالم المواقف والأحداث المرويّة، فإنّه يستخدم أحيانًا للإشارة إلى الراوي والمروي له)).[٣]

---

(١) لسان العرب: ابن منظور، مادة (ش خ ص).

(٢) ينظر: تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم: د. محمد بو عزّة، الدار العربية للعلوم، ناشرون ـ بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م: ٣٩.

(٣) قاموس السرديات: جيرالد برنس، ترجمة: سيد إمام، ميريت للنشر ـ القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٣م: ٣٠.

والشخصيّة هي مُجمل السمات والملامح التي تشكّل طبيعة شخص أو كائن حي، وهي تشير إلى الصفات الخلقيّة، والمعايير والمبادئ الأخلاقيّة، ولها في الأدب معانٍ نوعيّة أخرى، وما يتعلّق بشخص تمثّله قصّة أو رواية أو مسرحيّة. (١)

ثنائيّة التمظهر والتخفّي:

تبرز هذه الثنائيّة بشكل واضح في مقامات الهمذاني والحريري، وهذا ما نجده في شخصيّتي (الاسكندري والسروجي)، إذ كثيرًا ما يتنكّرون بأشكال عدّة، أو أنّهم يظهرون فجأة ، ويختفون فجأة، فمثلًا نجد الهمذاني قد عمد في بداية مقاماته إلى اخفاء شخصيّة الاسكندري، ولكن نجد في نهاية المقامة تتوضّح شخصيّته من خلال (عيسى بن هشام)، الذي هو دائمًا ما كان يرفع الستار عن شخصيّة الاسكندري، فنجد الكاتب يقدّم أبا الفتح على أنّه رجل، أو شاب، أو شيخ، فهو في (المقامة الأذربيجانيّة)(٢) متخف، إذ ((طلع رجلٌ بركوةٍ قد اعتضدها، وعصا قد اعتمدها، ودنيّة قد تقلّسها، وفوطة قد تطلّسها، فرفع عقيرته وقال: ((إنّ موضوع التخفّي الذي يمارسه الاسكندريّ يعبّر عن القناع النفسيّ الذي تقنّعه إنسان ذلك العصر، ولا يتقنّع ‘إلّا خائف، فالتخفّي واخفاء الهويّة مهددة، وحقيقة ضائعة وسط زحام الزيف، ولو ساد العدل والقيم الانسانيّة لما ارتدى المرء وجهًا غير وجهه، ولا هويّة غير هويّته، وإنّما هو خوف الفرد من عصر غلبت فيه لغة السيوف لغة العقل، وذبحت الحقيقة بشفرة الباطل)).(٣)

ولهذه الأسباب قد امتازت مقامات الهمذاني بمميزات كثيرة، منها (الغموض) الذي فيه، وربّما سبب ذلك أنّ الهمذاني أراد أن يعبّر عن أشياء في مجتمعه، ولكن

---

(١) ينظر: معجم المصطلحات الأدبيّة: إبراهيم فتحي، التعاضديّة العمّاليّة للطباعة والنشر ــ صفاقس، الجمهورية التونسية، (د. ط)، ١٩٨٨م: ٢١٠.

(٢) مقامات الهمذاني: ٣٨.

(٣) الفن القصصي في العصر العباسي: ٣٠٨.

بشكلٍ آخر عبر الإشارة والغموض، ومنه الغموض الفكريّ الذي تحلّى به، وهو ذلك الاحتراف والتناقض في شخصيّته، الذي جعل منه عالِمًا، وفقيرًا، ومتسوّلًا، وواعظًا، فأحيانًا يكون مرفوضًا، أو مقبولًا من قبل المجتمع، ذلك المجتمع المليء بالنفاق، وعدم الرحمة، ولذلك نجد أنّ أبا الفتح الاسكندري هو صورة لطبقة من الأدباء والمثقفين المهمشين في ذلك الوقت.

فمثلًا في (المقامة القريضية) يظهر أبو الفتح بهيئة ((شاب يجلس غير بعيد عن جماعة، حديثهم عن الشعراء، فقال: سلوني أجبكم، واسمعوا أعجبكم))[١]، هنا يعرض أبو الفتح خدماته، وفصاحته، وبلاغته على الملأ، فيستجيبون لطلبه، ويسألونه عن الشعراء (امرئ القيس ، وجرير ، والفرزدق)، وتكون اجابته غاية في البراعة والدقّة، وفي نهاية المقامة ((قال عيسى بن هشام: فأنلته ما تاح، فأعرض عنّا وراح، فجعلت أنفيه وأثبته، وأنكره وكأنّي أعرفه، ثمّ دلّتني عليه عناياه، فقلت الإسكندري والله، فقد كان فارقنا خشفًا، ووافانا جِلفًا، ونهضت على أثره، ثمّ قبضت على خصره، فقلت: ألست أبا الفتح))[٢]، فهنا يبدأ الظهور بعد الخفاء، وهذه ميزة امتاز بها أبو الفتح، وهي الخفاء في بداية المقامة، والظهور بعد نجاح الحيلة، وكسب المال.

أمّا بالنسبة للتخفّي فيختار الحريريّ لبطل مقامته (أبي زيد السروجي) أقنعة مختلفة، فأحيانا يكون واعظًا، وإمامًا وخطيبًا، ومكدّيًا، وناقدًا، ودائما ما يتمّ التعرّف والظهور عن طريق الحارث بن همام، وهي نفس الآليّة التي كانت موجودة في مقامات الهمذاني، فاتّبعها الحريري، فمثلًا في (المقامة المراغية) يقول: ((روى الحارث بن همام، قال: حضرت ديوان النظر بالمراغة، وقد جرى ذكر البلاغة، ...، وكان في

(١) مقامات الهمذاني: ١٢.
(٢) المصدر نفسه: ١٥.

المجلس كهلٌ جالسٌ في الحاشية، عند مواقف الحاثية))[١]، فههنا نجد الاختفاء والتنكر عند أبي السروجي، ويكون الظهور والتعرف عليه في نهاية المقامة عندما ينشد: ((

غسّان أسرتي الصميمة وسَراج تربَتي القديمة

قال الراوي: وكنت عرفتُ عود شجرته قبل ايناع ثمرته، ...، فأوحى إليّ بإيماضِ جِفنه، أن لا أجرد عضبه من جفنه، فلمّا خرج بُطين الخرج، وفصل فائزًا بالفلج))[٢]، فهنا نجد أنّه بدأ التعرّف عليه بعد نجاح خطّته، والحصول على المال.

الشخصيّات المهمّشة في مقامات الهمذاني والحريري:

سوف نقف هنا على دراسة الشخصيّات المهمّشة في مقامات الهمذاني والحريري:

١. شخصيّة المكدّي في مقامات الهمذاني:

تُعدّ ظاهرة الكدية من الظواهر الاجتماعية التي برزت بروزًا قويًا في القرن الرابع الهجري؛ بسبب تردّي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ترديًا كان من شأنه أن يؤذي الضمائر الأدبية، فالفقر بسط رداءه، وخيّمت ظلاله على سواد الشعب، وهذا ما اضطر كثيرًا من الناس الذين ضاقت بهم سبل العيش، وامتلأت نفوسهم سخطًا، إلى البحث عن وسيلة للارتزاق، فذهبوا يجوبون البلاد، ويقرعون الأبواب طلبًا للمال والطعام، فكان منهم المشعوذون والدجالون، كما كان منهم ذووا المروءات، ممّن اذهب ماء وجهه طلبًا للمال، وكلٌّ على طريقته، وأطلق المجتمع على هؤلاء جميعًا مصطلح (المكدّين).[٣]

---

(١) شرح المقامات: ٢٥١/١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٢/١.

(٣) ينظر: نماذج إنسانية في السرد العربي القديم: ٩٩.

لم يتردّد الإسكندري في التلون والتغير من حال إلى حال، والتفنن في استخدام الحيل مهما كانت، فهو ينظر إلى عمله هذا (الكدية) عمل مشروع، فهو لا يحتقره، وإنّما يبجّله ويحترمه، ويعدّ (الكدية) مهنة شريفة، حالها كحال باقي المهن الشريفة التي يتداولها الناس، والاسكندري يتعامل مع مهنة الكدية بتفاعل وحرارة، واستحقّ الاسكندري لقب (أستاذ)، من راويته عيسى بن هشام، عندما أخلص في مهنته، وسعى إلى بذل أقصى ما يستطيع ليُحقق النجاح المنشود.[١]

ففي (المقامة الفزارية)[٢] يقول عيسى بن هشام: ((شَحّاذ وربّ الكَعبة أخّاذٌ، لهُ في الصَنعةِ نَفَاذٌ، بلْ هُو فِيهَا أستاذ)).[٣]

وليست الكدية الموضوعة الوحيدة المُعالجة في المقامات، هذه المقامات التي تُخصّص حيزًا لمجموع موضوعات الأدب تقريبًا، غير أنّ كلّ شيءٍ في المقامات تابع للكدية؛ بوصفها غاية نهائيّة، أيّا كان مستوى كلامه، لا يهدف أبو الفتح أغلب الأحيان سوى إلى إثارة كرم مستمعيه، وإنّ إمكانيّات اللغة معبّأة نحو هدف محدود، وإذ يميّز الهمذاني موضوع الكدية، ويكرّس لها كنوز بلاغية، فلكونها تتيح له وصف الوضع الجديد.[٤]

لقد تعددت مصادر تشكيل شخصيّة المكدي في المقامات، ففي (المقامة القريضية)[٥]، إذ نرى أبا الفتح الاسكندري يشكو جَور الزمان، وتغيّر الأحوال، وانقلاب العيش من اليُسر إلى العُسر، كما تصوّرها هذه الأبيات:

---

(١) ينظر: نماذج إنسانية في السرد العربي القديم: ١٣٤.

(٢) فزارة: إحدى قبائل العرب، وإليها نسبت هذه المقامة. ينظر: مقامات الهمذاني: ٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ٥٦.

(٤) ينظر: المقامات، السرد والأنساق الثقافية: ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، عبد الفتاح كليطو، دار توبقال للنشر ـ الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠١م: ٦١.

(٥) القريضية: نسبة إلى بني قريضة، قبيلة من يهود كانت تسكن في المدينة المنورة عند هجرة (رسول الله صلى الله عليه وسلم) إليها. مقامات الهمذاني: ١٥.

وَيْحَكَ هَذَا الزَمانُ زُوْرُ فَـلَا يَغُرَّنَــكَ الغُــرورُ

لَا تَلتَــزِم حَالـةً ولَكِـنْ دُرْ باللَيَالِي كَمَـا تَـدُورُ.[١]

وأيضًا شخصيّة المكديّ نراها في (المقامة الأزاذية)[٢]، وهذه المقامة تتحدث عن طبقة الفقراء في المجتمع، عندما يخرج عيسى بن هشام إلى السوق ثمّ يقول: ((أَخَذَتْ عَيْنَايَ رَجُلاً قدْ لَفَّ رَأْسَهُ بِبُرْقُعٍ حَيَاءً، وَنَصَبَ جَسَدَهُ، وبَسَطَ يَدَهُ وَاحْتَضَنَ عِيَالَهُ، وَتَأَبَّطَ أَطْفَالَهُ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ يَدْفَعُ الضَّعَفَ فِي صَدْرِهِ، وَالْحَرَضَ فِي ظَهْرِهِ:

وَيْلِي عَلَى كَفَّينِ مِنْ سَويقِ أَوْ شَحْمَةٍ تُضْـرَبُ بالدَّقِيقِ

أَوْ قَصْعَةٍ تُمْلأُ مِنْ خِرْدِيـقِ يَفْتَأُ عَنَـّا سَطَـواتِ الرّيــقِ

يُقِيمُنَا عَنْ مَنْهَـجِ الطَرِيـقِ يَارَازِقَ الثرْوَةِ بَعــدَ الضِّيقِ.[٣]

ونجده في هذه الأبيات يتمنّى قصعة تُملأ من المرق، ويغمر فيها العيش حتى يكون ثريدًا ليُسكن صولة الريق، وعادة الجوعان أن يجري لعابه إذا اشتمّ رائحة القدور، وإنّه لو حصل على مُشتهاه لكان في ذلك إقالة له من عثرته، وانتشالًا له من وهدة انطراحه على الطريق.[٤]

ففي (المقامة الأزاذية) يصف عيسى بن هشام بائع الفاكهة وبضائعه، وما ابتاعه منها بقوله: ((قَدْ أَخَذَ أَصْنَافَ الفَوَاكِهِ وَصَنَّفَهَا وَجَمَعَ أَنْوَاعَ الرُّطَبِ وَصَفَّفَهَا، فَقَبَضْتُ مِنْ كلِ شَيءٍ أَحْسَنَهُ، وَقَرَضْتُ مِنْ كُلِ نَوعٍ أَجْوَدَهُ))[٥]، فالمقابل يواجه رجلًا ((قدْ لَفَّ رَأْسَهُ بِبُرْقُعٍ حَيَاءً، وَنَصَبَ جَسَدَهُ، وبَسَطَ يَدَهُ وَاحْتَضَنَ عِيَالَهُ، وَتَأَبَّطَ

---

(١) مقامات الهمذاني: ١٥.
(٢) الأزاد: نوع من التمر، المصدر نفسه: ١٦.
(٣) المصدر نفسه: ١٦.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٦.
(٥) المصدر نفسه: ١٦.

أَطْفَالَهُ))[١]، فلنتأمل حال الرجلين؛ بائع الفاكهة، والثاني الذي لفّ رأسه، يمكن أن نصف صاحب البضائع يمثّل الجانب المشرق من الحياة. أمّا الثاني فإنّه صاحب مطويّة على جسده، إنّه يحتضن عياله، فحالة الشحاذ تنتمي للجانب المظلم من الحياة.[٢]

ومن مصادر تشكيل نموذج المكدي في (المقامة الدينارية) وهي المقامة التي اتّفق فيها لعيسى بن هشام أن ينذر دينارًا يتصدّق به على أشحذ رجلٍ في بغداد[٣]، بعد ذلك وجد أبا الفتح الاسكندريّ في رفقة بني ساسان اجتمعت عليه في حلقة من الحلقات، فحفّزه ذلك أن يقيم بينهم مساجلة كلامية، يمنح في نهايتها الدينار لأحقّهم به ((اتَّفَقَ لي نَذْرٌ نَذَرْتُهُ في دِينَارٍ أَتَصَدَّقُ بِهِ عَلى أَشْحَذِ رَجُلٍ بِبَغْدَادَ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَدُلِلْتُ عَلى أَبِي الفَتْحَ الإِسْكَنْدَرِيّ، فَمضَيْتُ إِلَيْهِ لأَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ فِي رُفْقَةٍ، قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ في حَلَقَةٍ، فَقُلْتُ: يَا بَني سَاسَانَ، أَيُّكُمْ أَعْرَفُ بِسِلْعَتِه، وَأَشْحَذُ في صَنْعَتِهَ، فَأُعْطِيهُ هذَا الدِّينَارَ؟ فَقَالَ الإِسْكَنْدَرِيُّ: أَنَا، وَقَالَ آخَرُ مِنَ الجَمَاعَةِ: لاَ، بَلْ أَنَا. ثُمَّ تَنَاقَشَا وَتَهَارَشَا حَتَّى قُلْتُ: لِيَشْتُمْ كُلٌّ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ، فَمَنْ غَلَبَ سَلَبَ، وَمَنْ عَزَّ بَزَّ))[٤]، وبنو ساسان كانوا شحّاذين، وأهل استجداء، وكانوا يطوفون على البلدان.[٥]

والاسكندري لا يؤثر الظهور دائمًا بمفرده في حشد من الناس، بل يجمع حوله الصبية وينتحلهم أولًا له، وقد ظهر في سوق حمصٍ ومعه ابن وبُنيّة وجراب يضعُ فيه ما يحصله في (المقامة الأسدية)، وعصا كعادة المتسوّلين، وهو يقول[٦]:

رَحِـمَ اللهُ مَنْ حَشَـا فِـي جِرَابِي مَكَارِمَـهْ

---

(١) مقامات الهمذاني: ١٦.
(٢) ينظر: السرد في مقامات بديع الزمان: ١٣٣.
(٣) ينظر: فن المقامات بين المشرق والمغرب: ٦٥.
(٤) مقامات الهمذاني: ٢٥٣.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٣.
(٦) ينظر: نماذج إنسانية في السرد العربي القديم: ١٣٦.

رَحِـمَ اللهُ مـــنْ رَنَـا لِسَعِـيدٍ وَفَاطِمَـــهْ

إِنَّـــهُ خَـــادِمٌ لَكُـــمْ وَهْيَ لاَ شَكَّ خَادِمَـهْ. (١)

والاسكندري يدّعي هنا أن سعيدًا وفاطمة ابناه، وهو يعرض خدمتهما لمن أراد أن يستخدمهما، ولا تصل الحال بالأب أن يجعل أولاده خدمًا عند الآخرين إلّا إذا بلغ من الفقر مبلغه، فهو يسعى من خلال توسّله بالأطفال، أن يثير مشاعر الآخرين ويستعطفهم.(٢)

ونجد في (المقامة البخارية) إثارة شفقة الناس وعطفهم من خلال حمله طفلًا عريانًا، فيصف عيسى بن هشام لنا هذا المشهد ((وِحينَ احْتَفَلَ الجَامِعُ بِأَهْلِهِ طَلَعَ إِلَيْنَا ذُوْ طِمْرِينِ قَدْ أَرْسَلَ صِواناً، وَاسْتَتْلى طِفلاً عُرْيَاناً، يَضِيقُ بِالضُّرِّ وُسْعُهُ، وَيأْخُذُهُ القُرُّ ويَدَعُهُ، لاَ يَمْلِكُ غَيْرَ القِشْرَةِ بُرْدَةٍ، وَلاَ يَكْتَفِي لِحِمَايَةِ رِعْدَةٍ، فَوَقَفَ الرَّجُلُ وَقَالَ: لاَ يَنْظُرُ لِهَذا الطِّفْلِ إِلاَّ مَنِ اللهُ طَفَّلَهُ، وَلاَ يَرِقُّ لِهذا الضُّرِّ إِلاَّ مَنْ لا يأْمَنُ مِثْلَهُ))(٣)، ثمّ نجد أنّ الاسكندري يكتفي بمقالته ويقعد، وكأنّما الفقر والجوع ألجماه، فيطلب من الطفل أن يحدّثهم عن نفسه، فيتحدّث حديثًا ترقّ له القلوب، وتُبادِر له الجيوب، ويفرح له المنكوب(٤)، فيقول: ((ما عَسى أَنْ أَقُولَ وَهذا الكلامُ لَوْ لَقِيَ الشَّعْرَ لَحَلَقَهُ، أَوْ الصَّخْرَ لَفَلَقَهُ، وإِنَّ قَلْباً لَمْ يُنْضِجْهُ ما قُلْتَ لنِيءٌ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ يَا قَوْمُ)).(٥)

٢. شخصيّة المُحتال:

واهم شخصيّة نراها في مقامات الهمذاني هي شخصيّة المحتال، وغالبًا ما يقوم بها أبو الفتح الاسكندري، وأحيانًا يشاركه في احتياله عيسى ابن هشام، كـ (المقامة

---

(١) مقامات الهمذاني: ٣٣.
(٢) ينظر: نماذج إنسانية في السرد العربي القديم: ١٣٦.
(٣) مقامات الهمذاني: ٦٦.
(٤) ينظر: نماذج إنسانية في السرد العربي القديم: ١٣٧.
(٥) مقامات الهمذاني: ٦٦.

الموصلية)، وأحيانًا أخرى ينفرد عيسى بن هشام بالقيام بالاحتيال كـ (المقامة البغدادية).

إنّ المُحتال الأكبر في المقامات هو أبو الفتح الاسكندري، وغيره من المحتالين هم من المهمشين في مجتمعهم، الذين انتبه إليهم الأدب في القرن الرابع الهجري، وكان ذكرهم تعبيرًا عن فساد الأحوال الاجتماعية والسياسية آنذاك، وشخصية أبي الفتح المُحتال كما يقول د. مصطفى الشكعة (فكاهية من الطراز الأول)، وإنّها تتميّز بالفصاحة والوقاحة وحسن صنع الحيلة، وأيضًا إنّه بلا رحمة حين يحتال على الناس، ولا تشفع له مصيبة، ولا يحميه من بطش المحتال تردد أو ضمير، وأيضًا من صفاته قدرته على تحمّل المشاق، والمتاعب، ولا يتبرّم بقيد الأسر، وتعذيب السجون، وكذلك من صفاته أنّه جوّال دائم الترحال، قد فقد كل انتمائه إلى نسبه وجنسه، ومن هنا يبدو انهيار معايير القيم لديه.[١]

وهذا ما نراه في (المقامة القزوينية)[٢] عندما يتّخذ وعظ الناس وسيلة للاحتيال عليهم من أجل كسب المال، فتراه يقول في هذه المقامة:

أدْعُوا إِلَى اللهِ فَهَلْ مِنْ مُجِيبْ إِلي ذَراً رَحْبٍ وَمَرْعىً خَصِيبْ
وَجَنَّـةٍ عَالِيَـةٍ مَا تَنِـــى قُطُوفهـا دَانِيَـةً مَا تَغِيبْ
يَاقَـومُ إِنِّـي رَجُـلٌ تَـائِبٌ مِنْ بَلَدِ الكُفْرِ وأَمْرِي عَجِيبْ
إِنْ أَكُ آمَنْـتُ فَكَمْ لَـيْلَـةٍ جحَدْتُ رَبِّي وَأَتَيْـتُ المُريبْ.[٣]

في قوله: ((يا قَوْمُ وَطِئْتُ دَارَكُمْ بِعَزْمٍ لا العِشْقُ شاقَهُ، وَلاَ الْفَقْرُ سَاقَهُ، وَقَدْ تَرَكْتُ وَرَاءَ ظَهْرِي حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً، وَكَواعِبَ أَتْرَاباً، ... قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَاسْتَفَزَّنِي رَائِعُ أَلْفاظِهِ، وَسَرَوْتُ جِلْبَابَ النَّوْمِ، وَعَدَوْتُ إِلى القَوْمِ، فَإِذَا واللهِ شَيْخُنا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ

(١) ينظر: الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني: ٨٥-٨٦.
(٢) قزوين: إحدى بلاد الديلم. مقامات الهمذاني: ٧٠.
(٣) المصدر نفسه: ٧٠.

بِسَيْفٍ قَدْ شَهَرَهُ، وَزِيّ قَدْ نَكَّرَهُ، فَلَمَّا رآنِي غَمَزَنِي بِعَيْنِهِ، وَقَالَ: رَحِمَ اللهُ مَنْ أَعَانَنَا بِفَاضِلَ ذَيْلَهِ، وَقَسَمَ لنَا مِنْ نَيْلِهِ، ثُمَّ أَخَذَ مَا أَخَذَ، وَخَلْوتُ بِهِ فَقُلْتُ: أَأَنْتَ مِنْ أَوْلادِ النَّبِيطِ؟ فَقَالَ:

أَنَا حَالِي مِــن الزَّمَا نِ كَحَالِي مَعَ النَّسبْ

نَسَبِي فَـي يَدِ الزَّمَــا نَ إِذَا سَامَهُ انْقَلَـبْ. (١)

وأحيانًا أخرى نراه يدّعي العمى، ويتّكئ على عصا، كما في (المقامة المكفوفية)، حيث يذهب إلى بلاد الأهواز، وهناك يرى القوم مجتمعين على رجل ((وَإِذَا هُنَاكَ قَوْمٌ مُجْتَمِعُونَ عَلى رَجُلٍ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَخْبِطُ الأَرْضَ بعصاً على إِيقَاعٍ لاَ يَخْتَلِفُ، وَعَلِمْتُ أَنَّ مَعَ الإِيقَاعِ لَحْناً، وَلَمْ أَبْعُدْ لأَنَالَ مِنَ السَّمَاعِ حَظّاً، أَوْ أَسْمَعَ مِنَ الفَصِيحِ لَفْظاً، فَمَا زِلْتُ بالنَّظَّارَةِ أَزْحَمُ هَذا وَأَدْفَعُ ذَاكَ حَتَّى وَصَلْتُ إِلى الرَّجُلِ، وَسَرَّحْتُ الطَّرْفَ مِنْهُ إِلَى حُزُقَّةٍ كَالَقَرَنْبَي أَعمى مَكْفُوفٍ، فِي شَمْلَةِ صُوفٍ)).(٢)

وهكذا نجد أبا الفتح يحتال على الناس، وعلى عيسى بن هشام فيناله دينار ((قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَرَقَّ لَهُ واللهِ قَلْبِي، وَاغْرَوْرَقَتْ لَهُ عَيْنِي، فَنُلْتُهُ ديناراً)). (٣)

ولكن بعد ذلك يكتشف عيسى بن هشام شخصيّة أبي الفتح ((فَلَمَّا نَظَمَتْنَا خَلْوَةٌ، مَدَدْتُ يُمْنَايَ إِلى يُسْرَى عَضُدَيْهِ وَقُلْتُ: واللهِ لَتُرِيَنِّي سِرَّكَ، أَوْ لأَكْشِفَنَّ سِتْرَكَ، فَفَتَحَ عَنْ تَوْأَمَتَيْ لَوْزٍ، وَحَدَرْتُ لِثَامَهُ عَنْ وَجْهِهِ، فإِذَا وَاللهِ شَيْخُنَا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ، فَقُلْتُ: أَنْتَ أَبو الفَتْحِ؟ فَقَالَ: لا

أَنَــا أَبُــو قَلَمُــــونٍ فِـي كـُلِّ لَـوْنٍ أَكُـونُ

أَخْتَرْ مِنَ الكَسْبِ دُوناً فَــإِنَّ دَهْــــرَكَ دُونُ

زَجَّ الزَّمَــانَ بَحُمْــقٍ إِنَّ الزَّمَــــانَ زَبُــونُ

---

(١) مقامات الهمذاني: ٧١-٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ٦٣.

لا تُكَــذَبَنَّ بِعَقْــــلٍ ما العَقْلُ إلاَّ الجُـنُونُ)).[١]

وأيضًا نراه في مواقف حين يعبث بجثّة ميّته، ويُوهم أهله أنّه حيّ، وأنّه قادر على إشفائه، ثمّ يتّضح كذبه، ولِذا يُضرب ويُهان، ثمّ يفرّ مع صاحبه عيسى بن هشام إلى مكان آخر، ويجري فيه حيلة جديدة، عندما يزعم لأصحاب قرية يهدّدهم سيل يترقّبونه أنّه قادرٌ على إيقاف السيل، ويطلب منهم أن يزوّجوه بكرًا، ويذبحوا له بقرة صفراء، ثمّ يطلب منهم أن يصلّوا خلفه ركعتين طويلتين، وخلال سجودهم يُغافلهم مع صاحبه عيسى بن هشام ويهربان [٢]، وهذا ما نجده في (المقامة الموصلية).[٣]

وأيضًا في (المقامة الحرزيّة) عندما يحتال على الناس، حتّى وهم في هول ومصيبة، وهم في البحر ((وَجَنَّ عَلَيْنَا اللَّيْلُ غَشِيَتْنَا سَحابَةٌ تَمُدُّ مِنَ الأَمْطَارِ حِبَالاً، وَتَحْدُو مِنَ الغَيْمِ جِبَالاً، بِرِيحٍ تُرْسِلُ الأَمْواجَ أَزْوَاجاً، وَالأَمْطَارَ أَفْوَاجاً، وَبَقِينا فِي يَدِ الحِينِ، بَيْنَ البَحْرَيْنِ، لاَ نَمْلِكُ عُدَّةً غَيْرَ الدُّعَاءِ، وَلا حِيلَةً إلاَّ البُكَاءَ وَلا عِصْمَةً غَيْرَ الرَّجَاءِ)).[٤]

وفي هذا المنظر المخيف في البحر يجدون رجلًا قويًا لا يهتمّ لأمر المصيبة ((وَفِينَا رَجُلٌ لا يَخْضَلُّ جَفْنُهُ، وَلا تَبْتَلُّ عَيْنُهُ، رَخِيُّ الصَّدْرِ مُنْشَرِحُهُ، نَشِيطُ القَلْبِ فَرِحُهُ، فَعَجِبْنَا واللهِ كُلَّ العَجَبِ، وَقُلْنَا لَهُ: مَا الَّذِي أَمَّنَكَ مِنَ العَطَبِ؟ فَقَالَ: حِرْزٌ لا يَغْرَقُ صَاحِبُهُ، ... لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى يُعْطِيَنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ دِيناراً الآنَ، وَيَعِدَنِي دِيناراً إذا سَلِمَ.)).[٥]

---

(١) مقامات الهمذاني: ٦٥.
(٢) ينظر: الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني: ٨٨.
(٣) مقامات الهمذاني: ٧٨.
(٤) المصدر نفسه: ١٠٠.
(٥) المصدر والصفحة نفسهما.

وهكذا نجد الجميع يعطيه الدينار ويأخذ الحرز، فلمّا سلمت السفينة، ووصلوا إلى المدينة، فنفّذ الناس ما وعدوه، وأعطوه دينارًا، وهكذا نجده تنجح حيلته على الناس.

ومن المقامات التي فيها احتيال أبي الفتح على الناس من أجل لقمة العيش هي (المقامة الأرمينيّة)، وفي هذه المقامة نرى صورتين من الاحتيال، واحدة يقوم بها (أبو الفتح) باحتياله، والأخرى يقوم بها الفتى بالاحتيال على (أبي الفتح)، فالموقف الأول يحتال (أبو الفتح) لنيل خبز من أصحاب التنور، فيذهب أولًا لشخص يأخذ منه الملح، ثمّ يذهب إلى أصحاب التنور، ويطلب منهم أنْ يتدفّأ مع صاحبه بنار التنور[١] ((فَعَمَدَ الإِسْكَنْدَرِيُّ إلى رَجُلٍ فَاسْتَمَاحَهُ كفَّ مِلحٍ، وَقَالَ لِلْخَبَّازِ: أَعِرْنِي رَأْسَ التَّنُّورِ، فَإِنَّي مَقْرُورٌ، وَلَمَّا فَرَعَ سَنَامَهُ جَعَلَ يُحَدِّثُ القَوْمَ بِحَالِهِ، وَيُخْبِرُهُمْ بِاخْتِلاَلِهِ، وَيَنْشُرُ المِلْحَ في التَّنُّورِ مِنْ تَحْتِ أَذْيَالِهِ، يُوهِمُهُمْ أَنَّ أَذَىً بِثِيَابِهِ)).[٢]

وبعدها يبدأ أبو الفتح يحكّ جسمه مُوهِمًا أصحاب التنور أنّ أذًى بثيابه، وحين ذلك يهمّ الخبّاز برمي الخبز، معتقدًا أنّه قد أُصيبَ بحشرات سقطت من جسم أبي الفتح، ويطلب منه أبو الفتح أن يعطيه الخبز ليأكله بدلًا من رميه، فيعطيه إيّاه[٣] ((فقال الخَبَّازُ: مَا لَكَ لا أَبَا لَكَ؟! اجْمَعْ أَذْيَالَكَ فَقَدْ أَفْسَدْتَ الخُبْزَ عَلَيْنَا، وَقَامَ إِلَى الرُّغْفَانِ فَرَمَاهَا، وَجَعَل الإِسْكَنْدَرِيُّ يَلْتَقِطُهَا، وَيَتَأَبَّطُهَا)).[٤]

وهذه حيلة ماكرة عملها أبو الفتح، وانطلت على الخبّاز، وهناك حيلة أخرى من قبل أبي الفتح في هذه المقامة، عندما يُوهِم صاحبَ أوانٍ فيها ألبان أنّه حجّام يده ملوّثة بالدماء، وبعد أن وضع يده في اللبن زاعمًا أنّه يختبر حالته، وحينذاك يهمّ الرجل بصب اللبن على الأرض تقزّزًا من الحالة التي ظنّ أنّه صار إليها، فيطلب منه

(١) ينظر: الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني: ٣٩.
(٢) مقامات الهمذاني: ١٩١.
(٣) ينظر: الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني: ٣٩.
(٤) مقامات الهمذاني: ١٩١.

أبو الفتح أن يعطيه إيّاه بدلًا من أن يرميه[١] ((وَصَارَ إِلى رَجُلٍ قَدْ صَفَّفَ أَوانيَ نَظِيفةً فيها أَلوانُ الأَلْبَانِ، فَسأَلَهُ عَنِ الأَثْمَانِ، وَاسْتَأْذَنَ في الذَّوْقِ، فَقَالَ: أَفْعَلْ، فَأَدَارَ في الآنِيةِ إِصْبَعَهُ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ شَيْئَاً ضَيَّعَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ مَعِي ثَمَنُهُ، وَهَلْ رَغْبَةٌ في الحِجَامَةِ؟ فَقالَ: قَبَّحَكَ اللهُ! أَنْتَ حَجَّامٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَعَمَدَ لأَعْرَاضِهِ يَسُبَّهَا، وإِلَى الآنِيَةِ يَصُبُّهَا، فَقَالَ الإِسْكَنْدَرِيُّ: آثِرْنِي عَلَى الشَّيْطانِ، فَقالَ: خُذْهَا لاَ بُورِكَ لَكَ فِيها)).[٢]

أمّا الموقف الأخير الذي رسمه الهمذاني في هذه المقامة، فهو كان الأقوى، حيث ذهب أبو الفتح وعيسى إلى قرية يستطعمان أهلها، فيقدّم لهما غُلامٌ صفحةً بها لبنٌ يشربانه، ثمّ يطلب منهما خبزًا فيرفض الغلام إعطاءهما الخبز إلّا بثمن، ويتعجّبان لِمَ يطلُب منهما ثمن الخبز وهو أرخص من اللبن، بعدها تكون المفاجئة، أنّ اللبن الذي شرباه كانت فيه غضارة، وسقطت فيه فأرة، لذلك يتصدّق الغلام وأهله به على السيارة. [٣]

إذ يقول في المقامة نفسها ((وَسِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَرْيَةً اسْتَطْعَمْنا أَهْلَهَا، فَبَادَرَ مِنْ بَيْنِ الجَمَاعَةِ فَتىً إِلَى مَنْزِلِهِ، فَجاءَنَا بِصَفْحَةٍ قَدْ سَدَّ اللَّبَنُ أَنْفاسَها، حَتَّى بَلَغَ رَأْسَهَا، فَجَعَلْنا نَتَحَسَّاها، حَتَّى اسْتَوفَيْناها، وسَأَلْناهُمُ الخُبْزَ، فَأَبَوا إِلاَ بِالثَّمَنِ، ...، فَقَالَ الغُلاَمُ: كَانَ هَذَا اللَّبَنُ فِي غَضَارةٍ، قَدْ وَقَعَتْ فَيهَ فَارَةٌ، فَنَحْنُ نَتَصَدَّقُ بِهِ على السَّيَّارَةِ)).[٤]

وهكذا نرى أنّ الاحتيال عند الهمذاني هي مجرد وسيلة للنقد والتهذيب العكسي، لجأ إليها الهمذاني بهدف الإصلاح الاجتماعي، والتهذيب الأخلاقي. [٥]

---

(١) ينظر: الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني: ٤٠.
(٢) مقامات الهمذاني: ١٩٢.
(٣) ينظر: الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني: ٤٠.
(٤) مقامات الهمذاني: ١٩٢.
(٥) ينظر: المقامات والتلقي: ٣٥٢.

٣. شخصية الفقير المعدم:

وقد ركّزت المقامات على الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوّة، وأنّهم يتّخذون من الاستجداء والحِيَل، وسيلة من أجل الحصول على احتياجاتهم، والمقامات كثيرة التي رصدت فيها شخصيّة الفقير، وسنحاول تسليط على عددٍ منها.

وفي (المقامة السجستانيّة)[١] يعرّف (الاسكندري) نفسه ((وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ عَرَفَني فَقَدْ عَرَفَني، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفني فأَنا أُعَرِّفُهُ بِنَفْسي: أَنَا با كُورَةُ اليَمَنِ وَأُحْدُوثةُ الزَّمَنِ أَنَا أُدْعِيَّةُ الرِّجالِ، وَأُحْجيَّةُ رَبَّاتِ الحِجالِ، سَلُوا عنِّي البِلادَ وَحُصُونَها، وَالجِبالَ وَحُزُونَها))[٢]، هنا يبيّن حاله، وتغيّرها من الغنى إلى الفقر، وصولًا الاستجداء.

وفي (المقامة الكوفية) جاء على لسان الاسكندريّ ((قُرِعَ عَلينا الباب، فقُلنَا: مَنْ القارِع المُنتاب؟ فقالَ: وفدُ الليلِ وبريدِه، وفَلُّ الجوعِ وطَريدِه، وحَرٌّ قاده الضرّ، والزَمنُ المُرّ، وضَيفٌ وَطؤُهُ خفيفٌ، وضالّتُه رغيف، وجارٌ يستعدي على الجوع، والجيبِ المرقُوعِ))[٣]، وهنا نجده يصف حاله وفقره من شدّة الجوع.

وهكذا نجد أنّ الهمذاني قد حدّد موقفه من المجتمع، مجتمع عظّم الجَهَلَة، وهمّش الأدباء، ولذلك نجده قد اتّخذ من سلوك بطل مقاماته أبي الفتح، أسلوب متناقض في سلوكه وشخصيّته ((ولا شكّ أنّ سلوك الشخصيّة، وما تأتيه من أفعال، وما تتصرّف به في بعض المواقف، هي خير وسيلة تفصح عن صيغة تلك الشخصيّة وقيمها وتكوينها النفسي أو الخلقي أو الفكري أو غير ذلك من جوانب النفسي الإنسانيّة)).[٤]

---

(١) سجستان: إقليم بفارس الشرقية والأرب. مقامات الهمذاني: ٢١.

(٢) المصدر نفسه: ٢١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥.

(٤) من فنون الأدب المسرحي: د. عبد القادر القط، دار النهضة للنشر ـ بيروت، لبنان، (د. ط)، ١٩٧٨م: ٢١.

الشخصيات الظاهرة أو المتنفّذة في مقامات الهمذاني:

١. شخصية عيسى بن هشام:

إنّ شخصيّة (عيسى بن هشام) هي متذبذبة من حيث الغِنى والفقر، ومن حيث اهتماماته الشخصيّة، التي غالبًا ما تؤسس للحدث الرئيس في كلّ مقامة، فهو شخصية بين الثابت والمتغير، فعيسى طوال ظهوره في المقامات منشغل بتحصيل العلم، ولكنه أحيانًا يكون تاجرًا كما في المقامات (القريضية ـ والبلخية ـ والأرمنية)، وأحيانًا هو قاضٍ كما في المقامتين (الشامية وـ الخلفية)، ومرّة حاكم كما في (المقامة التميمية)، وغالبًا ما لا يفصح عيسى عن هذا الجانب من شخصه، لكنه في كل تلك الأحوال مهتم بالأدب وشؤونه، واللغة وغريبها، ذلك الاهتمام لا يتم الإفصاح عنه دائمًا بصورة صريحة، أو إنّه ملمح قار في شخصيته يمكن التعرف عليها بسهوله.[١]

فهو غني يصف غناه كما في (المقامة القريضية) ((حدّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: طَرَحَتْنِي النّوَى مَطَارِحَهَا حَتّى إذَا وَطِئْتُ جُرْجَان الأَقْصى. فاسْتَظْهَرْتُ عَلَى الأَيامِ بِضِياعٍ أَجَلْتُ فِيهاَ يَدَ الْعِمَارةِ، وَأَمْوَالٍ وَقَفْتُهَا عَلى التّجَارَةِ)).[٢]

وفي (المقامة البلخية)[٣] ((نَهَضَتْ بِي إلى بَلخَ تِجَارَةُ الْبَزّ فَوَرَدْنُهَا وَأَنَا بِعُذْرَةِ الشَّبَابِ وَبَالِ الفَرَاغِ وَحِلْيَةِ الثَّرْوَةِ، لا يُهِمُّنِي إلاَّ مُهْرَةُ فِكْرٍ أَسْتَقِيدُهَا، أَوْ شَرودٌ مِنَ الْكَلِمِ أَصِيدُهَا)).[٤]

فذكر الغِنى في سياق طرح عيسى أهم صفة فيه، إنّه لا ينشغل بشيء قدر انشغاله بـ (مهرة فكر)، أو (شرود من الكلِم)، وكأن الغنى والشباب وراحة البال هي مكنونات لحالة مثالية تسمح بتسليط الضوء دون تشويش على أهم صفات الراوي.[١]

---

(١) ينظر: السرد في مقامات الهمذاني: ١٢١.

(٢) مقامات الهمذاني: ١١.

(٣) بلخ: مدينة واقعة في شمال جبال هندكوش، غربي بدخشان، جنوب نهر جيحون. مقامات الهمذاني: ١٨.

(٤) المصدر نفسه: ١٨.

Abstract

My thesis entitled (Oppositional Dualities in Maqamat al-Hamdhani and al-Hariri, a balancing study) came to talk about the effective stylistic effect of the maqamat al-Hamdhani and al-Hariri by mediating the two writers' employment of oppositional dualities in their texts that were chosen. And three chapters and a conclusion.

As the introduction came in the study of (antagonistic dualities - rooting the concept and established in the Arab heritage), and the first chapter came under the title (dual personality between reincarnation and manifestation), and included a study (reincarnation, personality duality, manifestation and personality duality), and the second chapter came titled (Dual representations of the image of the ego) And the other), studied (the image of the concept and the ego), and (the image of the other - the concept and procedure), and the third came under the title (technical budget), and included a study of (language and style), (graphic image), and (sound image). The most important results, the most important of which was the semantic and technical effect of the oppositional dualism in the texts of the maqamat in question.

In compiling the study material I relied on a number of sources and references, the most important of which were (Usul Maqamat) by Ibrahim al-Sa`afin, (Kiddiyya literature in the Abbasid era) by Ahmad Hussein, and (Abu al-Fath al-Iskandari, the hero of the maqamat of Badi al-Zaman) by Muhammad Abd al-Munim al-Khafaji, and (Antibody dualities: a study of the term and its connotations) by Samir Al-Dayoub.

God grants success.

The researcher